

المقاومة المغربية للاحتلال الاسباني لسبته ومليلية (من اواخر القرن 19 الى غاية 1912)*

عبد المجيد بن جلون**

الكريم برشة، من طرف الجنرال فوينتيس، اثناء تفاوضه على اتفاقية فبراير 1895 (حيث قام الجنرال الاسباني بصفع السفير المغربي وهو يردد «أنا ماركايو»، وكان الجنرال ماركايو قد قتل من طرف الريفيين خلال معارك مليلية سنة 1893) وهناك سبب آخر للمرونة الاسبانية، وهو ان اسبانيا كانت في ذلك الحين تؤيد فكرة بقاء الأوضاع في المغرب على ما هي عليه، يعني الحفاظ على استقلاله، هذا في الوقت الذي رأت فيه نفسها غير قادرة على ابداء منافسة جدية للقوى الاوربية الأخرى التي كانت لها اطماع في المغرب.

ب - حرب مليلية لسنة 1909

في السنوات التالية، وامام تسارع الأحداث في المغرب، حيث تزايدت الهيمنة الفرنسية تحت ضغط عسكريها، ورجال الأعمال الرأسماليين بها، قررت اسبانيا ايضا في المغرب، وبكيفية اقوى مما حصل في العقود الماضية. وبالفعل ففي سنة 1907 شرع الفرنسيون في احتلال المغرب الشرقي، ثم الشاوية، وقامت اسبانيا اعتمادا على الاوفاق المبرمة مع فرنسا حول اقتسام المغرب، وخاصة اتفاق 3 اكتوبر 1904، فبدأت نشاطها الاستعماري انطلاقا من مليلية، وكان الدافع هو مناجم مليلية التي اعتقد الاسبان ومعههم مجموعات اصحاب المصالح الاوربيين، انها جد غنية بالمعادن، وهكذا قامت الشركة الاسبانية لمناجم الريف، بالاستحواذ سنة 1907 على مناجم الحديد في بني بوفغور.

وفي يوليوز 1909، تعرض عمال اسبان يشتغلون في مد خطوط السكة الحديدية الرابطة بين المكنج ومليلية، لهجوم من طرف افراد من القبائل المجاورة، فردت القوات الاسبانية على المهاجمين، فبدأت حرب استمرت عدة شهور، حيث احتشدت قوات ريفية قدمت من قبائل عديدة، تحت قيادة الشريف مزيان الشهير، وكان هدفها وقف الهجوم الاسباني، هذا الهجوم الذي لم يكن مبرره في البداية الا الرد على الهجوم الريفي السالف الذكر ثم تطور ليصير منطلقا لهجوم عدواني يستهدف غزو كل الريف او جزء منه على الأقل انطلاقا من مليلية.

وفي 27 يوليوز حقق الريفيون انتصارا باهرا على اعدائهم، ووضعوا ايديهم على غنائم حربية هامة، الا انهم اضطروا للتراجع امام قوات اسبانية ضخمة، احتلت اراضي قبائل قلعية وكبدانية.

وقد ربطت اتفاقية 16 نونبر 1910، التي وضعت حدا للعمليات الحربية، بين الجلاء عن المناطق المحتلة من طرف اسبانيا، وبين انشاء قوات مغربية يوظفها اسبان، وحددت مبلغ التعويضات بما فيها المتعلقة بأحداث الشاوية التي شارك فيها الاسبان الى جانب الفرنسيين بما قدره 65 مليون بسيطة، الا انها لم تضع حدا للتجاوزات الاسبانية في الأراضي المغربية، بل ان العكس هو الذي حصل.

فان الهجوم الاسباني على الريف سنة 1909، انما شحذ همم الريفيين الذين استأنفوا هجماتهم طيلة صيف 1911 بقيادة الشريف مزيان، وفي اكتوبر حاول الاسبان تمديد منطقة احتلالهم بالريف ناحية الغرب، ونجحوا في اختراق «واد كرت»، الامر الذي تسبب في معركة دامية، وفي دجنبر قام المجاهدون الريفيون باقتحام اراضي قبيلة قلعية، وارغموا الاسبان على التراجع الى ماوراء «واد كرت»، واستمرت المعارك منقطعة طيلة سنة 1912، وفي 15 ماي، استشهد المجاهد مزيان والسلاح في يده. وأدى غيابيه الى فتور في نشاط المجاهدين. وعلى كل، فإن معارك 1911 - 1912 انتهت بالنسبة للقوات الاستعمارية الاسبانية، بوقف تام لتقدمها في الريف، وهو شئ أكد انها كانت في حاجة اليه، كما تأكد ان فرض سيطرتها على المغرب ليس بالامر البسيط، وهو شئ ستأكد منه فرنسا قبل سنة 1912 وبعدها.

لقد استطاعت اسبانيا الاستحواذ على منطقة في المغرب، بناء على اتفاقها مع فرنسا في 27 نونبر 1912، الا انها ستضطر نخوض حروب تهنئة استمرت الى غاية 1927، وستواجه مقاومة من طرف مغاربة المنطقة (...)

* انقى نعرض - نرفسية

** سبب كية تحفوق - نرفسية

بلادنا، ولكن مع هذا فان استمرار احتلال هذه الثغور يشكل خلال القرون طوقا يضيق على كيان المغرب، ليمكن الاسبان بعد ذلك منه.

وتعتبر حرب 1859، 60 بالذات اول عملية انجزت من حجمها في هذا المجال، اما منطلق هذه الحرب او على الأصح ذريعة هذا الهجوم الاسباني ضد المغرب. فهو مرتبط بحادث وقع في غشت 1859، بين قبيلة انجرة، التي تقع سبتة في اراضيها، والقوات الاسبانية بالثغر المحتل، فقد انشأ الاسبان خارج حدود المدينة برجاً، سرعان ما قام افراد قبيلة انجرة بهدمه، خوفاً من أن يتطور الى تحصينات اهم. فنزلت قوات اسبانية بسبتة في نونبر، واحتلت تطوان بعد معارك ضارية ضد الجيش المغربي. وكانت القوات المغربية تحت قيادة اخوي السلطان، مولاي العباس، ومولاي احمد، وبقية جوانب النزاع معروفة بكيفية لاداعي للدخول في تفاصيلها. الا انه من اللازم ان اشير فيما نحن بصده الى ان المغرب اضطر في نهاية الحرب الى القبول بتوسيع الرقعة الترابية للثغر المحتل، وان عددا هاما من الريفيين ساهم في المعارك سواء بكيفية مباشرة في جبهة سبتة او بواسطة مناوشات حوالي مليلية.

بعد حرب 1859، 60، نشب حوالي مليلية نزاعان اقل اهمية، وذلك سنة 1893 و1909، بسبب ثورة قبائل قلعية ضد التجاوزات الاسبانية في المغرب، دون اعتبار الهجمات الصغيرة التي قاموا بها ضد اسبانيا ثلاث مرات بين 1870-1860.

أ - هجوم القلعيين في 1893

ادت السياسة التوسعية الاسبانية في المغرب، والتي تزايد تسلطها في النصف الثاني من القرن 19، الى فرض معاهدة 24 غشت 1859، التي جددت بنودها بواسطة معاهدة اخرى في 26 يونيو 1862 المرتبطة بالهزيمة المغربية في حرب 1859، 60 والتي تنص على تمديد رقعة مليلية على حساب قبيلة قلعية التي حاولت مرارا عرقلة تنفيذها في العقود التالية، وبكيفية متفاوتة التوفيق.

في 28 شتنبر 1893 امر الجنرال ماركايو، الحاكم العسكري لمليلية، بالشروع في اشغال بناء برج قريب من ضريح سيدي ورياش، ومنذ 1890 اقام الاسبان اربعة ابراج على الحدود الجديدة للثغر المحتل. وفي 2 اكتوبر، قام افراد قبيلة قلعية بمساعدة قبائل اخرى تحت قيادة الشيخ ميمون، بمهاجمة الأشغال القائمة في برج سيدي ورياش، وارغموا القوات الاسبانية على التراجع الى مليلية. وتلت ذلك عمليات عسكرية هامة، استمرت طيلة الأسابيع، واتخذت طابع حرب بمعنى الكلمة، وحسب التقديرات الاسبانية، فان القبائل الريفية حشدت في اكتوبر حوالي 8000 مجاهد محارب، و30.000 من الاحتياطيين، مما أرغم الاسبان على ارسال امدادات هامة الى مليلية، وفي هذه الظروف اضطر السلطان مولاي الحسن الذي كان يعاني من المرض، ومن الضغوط الاستعمارية على توات، الى ارسال اخيه مولاي عرفة الى عين المكان لتهدئة السكان، كي لا يترك للاسبان، او اية قوة اوربية اخرى، مبرر تدخل مكثف في المغرب، ونظرا لظروف المغرب السينة المتمثلة في ضعفه، وتعرضه لضغوط اجنبية متعددة الاشكال، فقد انتهت حرب مليلية الى اتفاقية مراكش، في مارس 1894، والتي تفرض على السلطان ان يضع قوات قرب الثغور المحتلة لمنع هجمات ريفية اخرى ضدها، وبذلك السلطات المغربية جهودا كبيرة لتأخير تنفيذ الاتفاقية، وفي 24 فبراير 1895 ابرم في مدريد عقد ملحق باتفاقية مارس 1894 ينص على ان عقاب «المعتدين» في مليلية سيتم من طرف السلطات عندما يتوفر على القوات الكافية لذلك، ومددت الآجال التي يتعين فيها على المخزن اداء التعويضات الحربية. ويمكن ايراد تبريرات عديدة لهذه المرونة الاسبانية غير المتوقعة. ازاء المغرب، وان كانت نسبية، ورغم تأثير حادث التهجّم الذي تعرض له السفير المغربي عبد

الاحتلال الاسباني للمغرب، في التدخل الاسباني في الشؤون الايطالية، التي حولت انتباه ملوكه عن اطماعهم التوسعية في المغرب، ولكن وفي نظري، وهذا مجرد افتراض للعمل يمكن التمسك به، فان اسبانيا عملت على الحاق سياستها الافريقية بمشاغلها الايطالية، وبالفعل فان مناطق احتلالها في المغرب الكبير، والتي كانت على هيئة رؤوس جسور ابتداء من بادس الى طرابلس مروراً بوهرا و تونس، هذه المناطق مكنتها من اعداد طريق ملاحية نحو ايطاليا.

واثر اكتشاف امريكا ايضا في هذا المجال، ذلك ان احتلال الاسبان وكذا البرتغال لبعض المراسي المغربية، وخاصة على الاطلنطي، كانت وراءه الرغبة في التوفر على محطات في الطريق البحرية المؤدية نحو مستعمراتهم الامريكية او الهندية. ونعود الى المقاومة المغربية التي لعبت بلا شك دورا اساسيا، فيما اصطلح على تسميته بـ «الاحتلال المحدود»، هذه المقاومة كانت من فعل:

- القبائل المرهوبة الجانب، المستقرة قرب المراكز المحتلة، وخاصة منها القبائل الريفية. وقد لاحظ عبد القادر بلمشرفي، في هذا الباب ان «مليلية محاطة بمرتفعات جبلية وعرة، يستقر بها سكان من المحاربين الاشداء، ويعتبر من الغرر القيام بعمليات غزو ضدهم».

- القراصنة المغاربة (المجاهدين في البحر) الذين زرعو البلبلة والاضطراب زمنا طويلا في صفوف اسطول اسبانيا، فأفلحوا في ايقاف توغلها العسكري والتجاري في بلادنا...

وفيما يتعلق بالمقاومة التي تشرف عليها الدولة، فاذا كانت شبه متقدمة ابان احتلال سبتة ومليلية، فان التصميم على طرد الاجنبي منها ظل موجودا في اذهان ملوك المغرب، الذين لم يألوا جهدا في هذا الباب، سواء على صعيد العمل العسكري، او باللجوء الى الأساليب الدبلوماسية، ومن باب التوضيح اذكر بأن السلطان مولاي اسماعيل، الذي جسد هذه العزيمة في استرداد هذه الثغور، خصص قسما من نشاطه لهذه المهمة، فبعدما استرد المهديّة سنة 1981 والعرائش سنة 1689، اقام الحصار على سبتة من سنة 1694 الى سنة 1720 يعني 26 سنة! وعلى مليلية من 1694 الى 1696 واما السلطانان سيدي محمد بن عبد الله ومولاي اليزيد، فقد حاصرا بدورهما كلا من سبتة ومليلية مستعملين في ذلك قوات هامة، مما فرض على اسبانيا حرب استنزاف دامت عدة شهور.

وقد حاول ملوك المغرب ابرام تحالف مع انجلترا من اجل طرد الاسبان من المراكز المحتلة وبالأخص سبتة. ومن اكبر الشواهد في هذا الباب رسالة مولاي اسماعيل الشهيرة الى البرلمان الانجليزي سنة 1706.

بعد هذا التذكير التاريخي الموجز، الهادف الى توضيح ظروف الاحتلال الاجنبي للثغور المغربية، والوسائل التي لجأ اليها المغرب لتحريرها في القرون التي تلت الاحتلال، فيما يلي سأعرض للمقاومة المغربية في خطوطها العريضة في هذا المجال، في اواخر القرن 19 وبداية العشرين وهو موضوعنا.

2 - المقاومة المغربية في اواخر القرن 19 وبداية 20

يستحسن التطرق هنا قبل كل شئ الى حرب 1839، 60 على الأقل في خطوطها العريضة لأنها توضح الوضعية الحقيقية او على الأقل الوضعية المفترضة للثغور المحتلة، وتبين ايضا النزاع القديم بين اسبانيا والمغرب حولهما، اشرنا اعلاه عند التطرق لـ «الاحتلال المحدود»، وباستغراب الى ان اسبانيا في عز «عصرها الذهبي» لم تحاول او على الأصح لم تغلغ في التوسع في المغرب كله، والحال ان مشاريع غزو شمال افريقيا وخاصة المغرب الأقصى، لم تغيب ابدا عن اذهان المسؤولين في الضفة الأخرى للمضيق، الا ان ظروفها لم اكر الحديث عنها، وبالأخص منها المقاومة الأهلية، منعت اسبانيا من التوغل في

في البداية اود التطرق الى قضية المصادر المتعلقة بهذه «الثغور»، فالمؤرخ يجد نفسه امام مجموعة من الوثائق، تبلغ من الوفرة حدا يجعل من غير الممكن الاحاطة بها كلها. وهذه الوضعية تشكل طبعا، جانبا ايجابيا ونقطة ضعف في أن واحد، وبالنسبة اليها ايضا عند اعداد الورقة لم نقلت من هذه العرقلة، رغم ان الاشتغال على مادة وفيرة افضل من الاعتماد على مادة ناقصة. ومن باب الأمانة الفكرية، اقول بأنني امام هذا الكم الهائل من الوثائق لم اتمكن لأسباب ظرفية من الرجوع لا الى الوثائق الاسبانية، ولا الى المصادر الاولية المغربية، في موجودات دار النيابة السلطانية بطنجة، الملحقة اليوم بالخزانة العامة بتطوان. ومعنى هذا انني اعتمدت في تحضير هذا العرض على مصادر من درجة ثانية، وانا اول من يتأسف لهذا.

وبعد هذه الاشارة الاولية لقضية المصادر، اطرح الاشكالية التي يمكن ان تكون خيطا هاديا لدراسة حول قضية المراكز الممكنة، والفكرة الاساسية التي تتضح قبل كل شئ هي ان المغرب أظهر ارادة صلبة ودائمة في استرداد الثغور المحتلة من طرف اسبانيا، الشئ الذي يقودنا الى شرح مفهوم المقاومة.

وقبل التدقيق فيما يبدو لي لمضمون هذه المقاومة، لابد من رفع التباس قد يطرح اشكالا خاطئا، ينبغي طرحه هنا لاعتبارات منهجية صرفة. وأقصد احتمال وجود مقاومة مغربية داخلية بالمراكز المحتلة. وفي الحقيقة فان هذا الهاجس المنهجي لا اساس له، لسبب بسيط وهو أنه قبل سنة 1912 تكاد تكون الساكنة المغربية منعدمة بهذه المراكز.

وبناء على هذا فان المقاومة المغربية يمكن عرضها على ثلاث مستويات:

- على صعيد عسكري تحت اشراف الدولة.
- على صعيد دبلوماسي.
- وأخيرا على صعيد المناوشات المستمرة التي تقوم بها القبائل المجاورة.

الا ان نقص المعلومات، وخاصة منها الأصلية، والذي اشرت اليه اعلاه، لايسمح لي بدراسة ترابط المكونات الثلاث للمقاومة المغربية كما اريد.

وكيفما كان الحال، ومهما كانت المقاربة التي نريد ان نركز عليها في هذا الاطار، فانه لايمكن التعرض مباشرة لقضية المقاومة ابتداء من اواخر القرن 19 دون التمهيد لها بخلفية تاريخية ولو في خطوط عريضة.

1 - خلفية تاريخية للثغور المحتلة

ان احتلال سبتة ومليلية يدخل في اطار السلسلة الطويلة للاحتلال الاجنبي للموانئ المغربية... واذا استبعدنا من القوى المغتصبة البرتغال، التي لم تستمر هيمنتها على سبتة الا بين 1415 و1460، والتي لاهمنا فترة استقرارها على السواحل الاطلننتية في هذه الدراسة..

واذا استبعدنا ايضا بريطانيا التي لم يدم احتلالها لطنجة الا بين 1662 و1684، فان القوة الاستعمارية التي تهمنا هنا، هي اسبانيا، رغم ان وجودها كان هامشيا في بلادنا.

وقد قدم بعض المؤرخين فكرة «الاحتلال المحدود» التي اريد ان اوضحها بايجاز، ويجب البحث اولا عن اصل الادارة الاسبانية في سلوك سياسة غزو ازاء المغرب، في خوفها من الوقوع مرة اخرى في يد المسلمين والمغاربة بالأخص، والوصية التي تركتها ايزابيل الكاثوليكية والمؤرخة 1504، تؤكد بوضوح، الموقف الاسباني في هذا الباب، ولكن يمكن التساؤل عن الاسباب التي جعلت الاسبان في اوج قوتهم في القرنين 16 و17م يكتفون بهذه المراكز؟ وهنا لاكتفي بمبرر المقاومة المغربية وحدها، وقد كانت مقاومة فعالة، وسأعود اليها فيما بعد، وقد كانت مقاومة مغربية رغم ان هذه المرحلة العصبية من تاريخ المغرب تميزت بانعدام دولة قوية، تستطيع التصدي بحزم للتدخل الاستعماري وادحره، ولهذا يتعين البحث عن اسباب محدودية